

الفصل الأول  
معنى الأَقليات



## الفصل الأول معنى الأقليات

يُعرّف القانون الدولي الأقلية بأنها: «مجموعة من السكان الأصليين أو المهاجرين المستوطنين ممن يختلفون عن الغالبية إما من ناحية العرق أو الدين أو اللغة، لكنهم يتمتعون بحقوق المواطنة كافة من دون تمييز، وتتولى الدولة حماية حقوقهم وحياتهم مع الاعتراف بولايتها الكاملة عليهم»<sup>(1)</sup>.

ويختلف وضع الأقلية السابقة سواءً كانت عرقية أم دينية عن الوافدين الأجانب حتى وإن أقاموا إقامة دائمة ومتصلة للعمل داخل البلاد، وأمثال هؤلاء يتمتعون بحقوق وحيات محدودة طبقاً لقواعد القانون الدولي الخاص في كل دولة، وبإمكان الدولة إخراجهم من إقليمها أو منعهم من الدخول إذا وقع ما يهدد الاستقرار السياسي والاجتماعي<sup>(2)</sup>.

وتتصل مشكلة الأقليات بأمرين لهما دور بالغ التأثير فيها، الأمر الأول: مبدأ المواطنة بمعنى أن حقوق وواجبات المواطنة هو الأساس في الجنسية، وإذا كان للأقلية حق المواطنة طبقاً للجنسية، فإن جميع الحقوق والواجبات ستكون على قدم المساواة بالنسبة لجميع المواطنين. أما الأمر الثاني: حقوق الإنسان، ويشمل ذلك ما نصت عليه الاتفاقيات الدولية في الحقوق السياسية والاجتماعية والمدنية، وذلك أن الحفاظ على حقوق الإنسان يعد أكبر من الحفاظ على حقوق المواطن في أية دولة كانت<sup>(3)</sup>.

ويذكر المفكر الإسلامي محمد عمارة في كتابه «الإسلام والأقليات»: أن مصطلح الأقلية

1 جمال الدين محمد محمود، الإسلام والمشكلات السياسية المعاصرة، دار الكاتب المصري واللبناني، (القاهرة، بيروت، 1992)، ص 385.  
2 المصدر نفسه، ص 385.  
3 المصدر نفسه، ص 386.

في استخداماتنا الثقافية والاجتماعية الحديثة والمعاصرة، مصطلح قادم من البيئة والمفاهيم الغربية التي وفدت إلى واقعنا الثقافي والاجتماعي منذ الاحتكاك بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية في العصر الحديث، وهذا ما يجعله مصطلحاً محملاً بمعاني الظلال (العنصرية- الإثنية- العرقية) التي ارتبطت بالثقافة الغربية، عندما استخدم للتعبير عن الأفراد ممن يعدون أنفسهم أو يعدهم الآخرون مشتركين في بعض السمات والخصائص التي تميزهم عن التجمعات الأخرى في مجتمع يستطيعون في إطاره تطوير سلوكهم الثقافي الخاص<sup>(1)</sup>.

فالأقلية الإثنية في مفهومها الغربي ليست مجرد أقلية عددية، أو هي أقلية سياسية، وإنما هي أقلية لها هوية ثقافية مختلفة عن الهوية الثقافية لغالبية المجتمع الذي تعيش فيه، وهويتها الثقافية هذه عادة ما تتطور في اتجاه متميز أو مختلف عن الهوية الغالبة لأغلبية المجتمع الذي تقطن فيه. ومن أجل ذلك، يمكن أن نفهم رفض أقباط مصر (الأقلية العددية في مصر) ومعهم المصريون، لمصطلح الأقلية بالمفهوم الغربي، فهم لا يتنازلون عن هويتهم الثقافية والقومية والحضارية والعرقية. وقولهم: «نحن بوصفنا أقباطاً، لا نشعر بأننا أقلية، لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقي (إثني) لأننا مصريون، يجري فينا دم واحد منذ أيام الفراعنة، ومن جهة العربية، فنحن نحيا العربية، لأنها هويتنا الثقافية والثقافة الإسلامية هي السائدة الآن، وأي قبطي يحمل في الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية، يتحدث بها ببساطة دون الشعور بأنها دخيلة بل هي جزء من مكوناته»<sup>(2)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن تراثنا الإسلامي والحضاري والتاريخي واللغوي، لم يعرف استخدام مصطلح الأقلية بهذا المفهوم الوافد من الغرب، وإنما عرفه فقط بمعناه اللغوي (أي الأقلية العددية) في مقابل الأكثرية العددية، دونما أية مفاضلة أو تمييز بسبب هذه الكثرة أو القلة في الأعداد.

إن الأكثرية العددية هي الأفضل دوماً من الأقلية العددية داخل المجتمع الواحد، وهذا كلام لا معنى له ولا صحة مطلقاً، ويحدثنا القرآن الكريم حول ذلك في العديد من الآيات في الذكر الحكيم: (مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)<sup>(3)</sup>، (فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَسِقُونَ)<sup>(4)</sup>، (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ

1 محمد عمارة، الإسلام والأقليات الماضي والحاضر والمستقبل، مكتبة الشروق الدولية، (القاهرة، 2003)، ص 7.  
2 المصدر نفسه، ص 7-8.  
3 سورة آل عمران: الآية (110).  
4 سورة الحديد: الآية (16).

وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (1).

فلم تغن الكثرة عن الأفضلية، ولم تكن الكثرة مزية دائماً، بل لقد ارتبط مصطلحها، في الكثير من الاستخدامات بالصفات السلبية، وعلى النقيض من ذلك ارتبط مصطلح القلة والأقلية غالباً في التعبيرات القرآنية الدقيقة بالصفات الإيجابية: (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ) (2)، (كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ) (3).

ويعتذر الشاعر السموأل عن قلة قومه فيقول:

تعرنا أنا قليل عديدنا فقلت لهما إن الكرام قليل

فالأقلية والأكثرية مصطلحان يستخدمان بمعنى الكثرة العددية والقلة العددية فقط لا غير، دون أيّ ضلال مفهومية لصيغة الكثرة والقلة، وإنما العبرة بالمعايير التي تجتمع عليها وتؤمن بها وتنتمي إليها الأكثريات والأقليات، فالمدح والذم والإيجاب والسلب، إنما هو للمعايير والمكونات والهويات والمواقف، ولا أثر في ذلك للكثرة أو القلة في الأعداد (4).

خلق الله - عز وجل - الإنسانية من نفس واحدة، ثم شاء لها التنوع والاختلاف . . . إلى ذكران وإناث، وشعوب وقبائل، وألسنة ولغات وقوميات وألوان صفراء وسوداء وبيضاء، وأجناس وملل ونحل وشرائع وأديان، ومناهج وثقافات، وأعراف وتقاليد . . . وجميع ذلك ضمن إطار جامع للإنسانية الواحدة، فجامع الأمة هو الرابط الذي يظلل التنوع والاختلاف في العقائد والشرائع الدينية، وفي الشعوب والقبائل وما إلى ذلك من تنوع وتعدد، جميع ذلك هو سنة من سنن الله - عز وجل - التي لا تبديل لها ولا تحويل (5).

## مشكلة الأقليات في المجتمعات القديمة

تعد مشكلة الأقليات مشكلة إنسانية ظهرت مع قيام المجتمعات الإنسانية ولا جدال في ذلك، فهي مشكلة عرفتها المجتمعات القديمة والوسيلة، وحتى في المجتمعات الحديثة باتت تمثل في علمنا المعاصر مشكلة دولة، وكانت مشكلات الأقلية في المجتمعات القديمة لا تكاد

1 سورة المائدة: الآية (66).

2 سورة سبأ، الآية: (13).

3 سورة البقرة: الآية (249).

4 عمارة، المصدر السابق، ص 8-9.

5 عمارة، المصدر السابق، ص 9.

تظهر في المجتمع بوصفها مشكلة إنسانية؛ إذ كان الغالب أن تقهر الأقلية أياً كانت طبيعتها ، وأن تتحمل القهر الذي كتب عليها شاءت أم أبت ، وهكذا واجهت الأقليات العرقية والدينية حياتها دون أن يكون هناك اهتمام محلي أو دولي ، ومن جانب آخر لم تتنبه الأقليات العرقية والدينية في المجتمعات القديمة إلى حقها في الحياة دون أن ينتهك كيانها الديني والعرقى أو هويتها الثقافية والاجتماعية التي تستمد من كيانها ، وإذا كانت مشكلة الأقليات قد نالت اهتماماً ملحوظاً في هذا العصر فإن ذلك يرجع إلى أمرين مهمين الأول: أن هذه المشكلة في بلد من البلاد تؤثر في استقراره الداخلي وقدرته على التقدم والنمو ، وتؤثر أيضاً على علاقاته الدولية ، فالأقلية الدينية أو العرقية في أية دولة ليست منقطعة الصلة بالعالم ، وليست كياناً منفرداً في المجتمع العالمي بل هي تنتمي إلى عرق ودين قد تكون له الأغلبية في بلد آخر<sup>(1)</sup> ، وهذا من دون شك سيفتح أبواب التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد التي تحتضن تلك الأقلية ، وليس من الغريب أن يكون هذا التدخل مفتاحاً للاحتلال والاستعمار والدمار ، الثاني: أنه مع تقدم المجتمع الدولي في الأخذ بمبادئ حقوق الإنسان ، لا يمكن إهمال مشكلة الأقليات وهي تمثل جانباً هاماً من المشكلات السياسية التي تتبناها الدول والمنظمات الدولية الإنسانية في العصر الحديث .

كان الغالب في العالم القديم الأنظمة السياسية ذات الطابع الإمبراطوري التي تضم أقاليم عديدة شاسعة تُحكم بواسطة ملك أو إمبراطور يقيم في عاصمة الإمبراطورية ، وكانت إمبراطوريتا الفرس والروم تضم كل منهما أقاليم تختلف في العرق والدين واللغة والهوية والعادات والتقاليد ، ويجري حكم هذه الأقاليم المتباعدة والمترامية الأطراف على اختلافها مع الدولة الأم بالقوة والسيطرة المطلقة حتى مع وجود التفرقة الظاهرة بين شعوب هذه الأقاليم وشعوب الدولة الأم في النظم والحقوق والواجبات<sup>(2)</sup> ، إذ كانت هناك دائماً تفرقة واضحة بين الشعوب المحكومة والسلطة التي قهرتها ، وأخضعتها بقوة السياط ، ولم تكن فكرة المواطنة واردة بالنسبة للشعوب المغلوب على أمرها .

## مشكلة الأقليات في العصر الحديث

طفت مشكلة الأقليات في العصر الحديث على نطاق دولي بوصفها مشكلة بحاجة إلى علاج عندما ظهرت قواعد لحماية الأقليات حين تم ترسيم حدود الدول الأوروبية ، ووردت

1 محمود ، المصدر السابق ، ص 382 .

2 كان القانون الروماني يطبق على الرومان دون غيرهم من الشعوب التابعين لإمبراطوريتهم .

بعض البنود في مؤتمر برلين عام (1878) وتضمنت الاتفاقيات بعد الحرب العالمية الأولى نصوصاً لحماية الأقليات اشترطت فيها دول الحلفاء أن تعامل الأقليات بشكل عادل ومتوازن بالنسبة لأقليات الجنس والدين واللغة، أي (أن يكون الجميع سواسية أمام القانون)، ولا سيما الحقوق المدنية والسياسية لجميع الرعايا مهما اختلفت أجناسهم ولغاتهم ودينهم بما في ذلك الحق في تكوين وتأسيس منظمات للأهداف الدينية أو التعليمية<sup>(1)</sup>.

وقد عدت هذه البنود إلزاماً دولياً عندما وضعت تحت ضمان ورعاية عصابة الأمم<sup>(2)</sup> ومجلس العصبة (يعادل مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة)، والذي منح سلطة اتخاذ الإجراءات اللازمة في حالة انتهاك المعاهدات الخاصة بحقوق الأقليات، ووضعت إجراءات خاصة بواسطة العصبة فيما يختص بشكاوى الأقليات من أي انتهاكات لحقوقهم، ومنها إحالة الأمر إلى محكمة العدل الدولية<sup>(3)</sup>، وقد أدى تطبيق الأحكام الواردة في المعاهدات الدولية المعقودة بعد الحرب العالمية الأولى إلى جدل كبير بسبب ما تضمنته من قيود على سلطان الدولة الموقعة عليها<sup>(4)</sup>.

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى انهارت امبراطوريات كبرى أمثال الإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية المجر التي كانت تحكم أقاليم عديدة وخاصة في شرق أوروبا، وفي البلقان<sup>(5)</sup> وعند رسم حدود تلك الدول لم يكن هناك مفر من أن تشمل هذه الدول أقليات في الجنس أو الدين أو اللغة، وعلى سبيل المثال كان ربع سكان بولندا بحسب حدودها من غير البولنديين هم من الألمان واليهود والروس<sup>(6)</sup>.

تواجه الأقليات في واقعنا الراهن، تحديات عظيمة، فقوى الهيمنة الغربية تسعى جاهدة إلى جعل هذه الأقليات أوراق ضغط، وثغرات اختراق وتدخل لإعاقة تقدم الأمة العربية والإسلامية ونهوضها وانبعاثها الحضاري، فمنذ بدايات الغزوة الاستعمارية الحديثة للوطن العربي (مركز العالم الإسلامي)، المتمثلة بحملة نابليون بونابرت (1769-1821) على

- 1 المصدر نفسه، ص383.
- 2 عصابة الأمم: منظمة دولية تأسست عام 1920 بموجب ميثاق مكون من 26 مادة يؤلف جزءاً من معاهدة فرساي، عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهيري، الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 1974)، ص382.
- 3 محكمة العدل الدولية: الجهاز القضائي التابع للأمم المتحدة، يتألف من خمسة عشر قاضياً تختارهم الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن لمدة تسعة أعوام، وتنظر في القضايا المختلف عليها بين الدول، المصدر نفسه، ص492.
- 4 محمود، المصدر السابق، ص383.
- 5 البلقان: كلمة تركية معناها الجبل، ومن أهم دولها البانيا-بلغاريا-صربيا-الجبل الأسود.
- 6 المصدر نفسه، ص383.

مصر عام (1798) كان الإعلان عن مخطط العمل لاستخدام الأقليات في مشروع الهيمنة الاستعمارية، وذلك عندما أعلن بونابرت عزمه على تجنيد عشرين ألفاً من أبناء الأقليات غير المسلحة، ليكونوا مواطني أقدام وثغرات اختراق تعيينه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية في الشرق، وأثناء حصاره لمدينة عكا الفلسطينية عام (1799) أصدر بونابرت نداءه إلى الأقليات اليهودية في العالم، كي تتحالف معه لتحقيق هذا الغرض الاستعماري، مقابل أن يساعدها في احتلال فلسطين، بعد أن وعدوه بأن يكونوا معاول هدم في أجساد الإمبراطورية العثمانية<sup>(1)</sup>.

ومنذ ذلك الحين، اتخذت قطاعات من هذه الأقليات اليهودية أكثر القرارات اللاأخلاقية، عندما وظفت نفسها في خدمة الحضارة الغربية التي اضطهدت اليهود طوال تاريخهم، ووجهتهم ضد الحضارة الإسلامية التي طالما أكرمتهم، وهكذا بدأت الشراكة بين الصهيونية والاستعمار الغربي.

وبعد فشل مشروع بونابرت الاستعماري الموجه ضد مصر، لم تخرج فرنسا من الساحة، فقد تولت تحويل الأقلية المارونية في لبنان عن طريق التغريب الثقافي ومدارس الإرساليات التبشيرية إلى ثغرات اختراق لتحويل اتجاه هذه الأقلية وغيرها إلى الغرب بدلاً من الشرق والعروبة وحضارة الإسلام، وذلك وصولاً إلى جعل (البربرية) العربية - كما يزعم الغرب - تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية الأوروبية<sup>(2)</sup>.

وتولت فرنسا في بلاد المغرب العربي اللعب بورقة الأقلية الأمازيغية لإلحاق عاداتها وأعرافها بالقانون الوضعي الفرنسي، بدلاً من الشريعة الإسلامية، وإلحاقها لغوياً وثقافياً بالفرنسية بدلاً من هويتها الحضارية الإسلامية العربية.

وقد كتب الصهيوني موش شاريت (1894-1965) في مذكراته عن المقاصد من وراء اللعب بأوراق الأقليات في البلاد العربية والإسلامية، يقول: أولاً: تهيئة وتقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي، ثانياً: إذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة وتوجيهها صوب المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي، فمجرد تحريك الأقليات هو عمل إيجابي بالنسبة للمستعمرين، لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر<sup>(3)</sup>.

1 عمارة، المصدر السابق، ص32.

2 المصدر نفسه، ص34.

3 المصدر نفسه، ص35.

تُعد الأقليات من الثوابت الاستعمارية الصهيونية في تنفيذ مخططاتها التفتيتية للعالم الإسلامي، ففي محاضرة ألقاها أرييل شارون<sup>(1)</sup> في (18 كانون الأول عام 1981)، وكان يومئذ وزيراً للدفاع- والتي نشرتها مجلة معاريف يقول: «إن إسرائيل تصل بمجالها الحيوي إلى أطراف الاتحاد السوفيتي شمالاً، والصين شرقاً، وأفريقيا الوسطى جنوباً، والمغرب العربي غرباً. . . وهذا المجال الحيوي عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة»<sup>(2)</sup>.

ومن الغريب إلى حد بعيد أن اليهود هم أصلاً من الأقليات المنتشرة في العالم، وربما هذا ما جعلها أدرى من غيرها في كيفية استغلال هذا الأمر لصالحها الخاص، وجعلت منه مجالاً حيويًا لنشاطها وتحرركاتها الاستعمارية في العالم أجمع فكلما ازدادت الأقليات في العالم، ازدادت قوة إسرائيل، لذا فهي مختصة في صناعة الأقليات بالدرجة الأساس، ومن كان منها موجوداً، فإن إسرائيل مختصة في تحريكها ضد الدولة التي تقطنها تلك الأقلية وذلك لتوسيع الهوة بين الجانبين، وإضعاف الجميع إلى درجة الانحناء والاضمحلال. فمن لم يكن لديه أقلية صنعت له دون تأخير، ومن لا يرغب بالحرب سيجدها عما قريب مع محارب لا يختاره بنفسه.

### مصطلح الأقلية في الفكر السياسي الإسلامي

لم يُعرّف الفكر السياسي الإسلامي مصطلح الأقلية بدلالته الحديثة كما يعبر عنه في العلوم الاجتماعية، ولكن كلمة الأقلية تتضمنها مفردات اللغة ويستخدمها مفكروها بوصفها تعبيراً عن الاستثناء والجزئية أو مباينة الغالب والكثرة، وتشير معاجم اللغة إلى مادة (قل) أُشتقت منها كلمة الأقلية، فيحدثنا لسان العرب ويقول: القلة خلاف الكثرة، قال الله -عز وجل-: (وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ)<sup>(3)</sup>. القل: القلة مثل: الذل، الذلة، وفي حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-: «الربا وإن كثر فهو إلى قل»، أي إلى قلة.

وفي إطار سياق اجتماعي وسياسي يعكس أكثر الحالات تعبيراً عن مفهوم الأقلية ألا وهي كلمة «شرذمة»، وتذهب إليه الدراسات الاجتماعية الحديثة في قوله تعالى حول قصة

1 أرييل شارون: رئيس وزراء إسرائيل ولد في كفار حلال في فلسطين أيام الانتداب البريطاني من أب بولندي وأم روسية. يعد من السياسيين العسكريين المخضرمين على الساحة الإسرائيلية.  
2 عمارة، المصدر السابق، ص36.  
3 سورة الأعراف: الآية (86).

فرعون في وصفه لقوم موسى بعد أن خرجوا من مصر بقوله: (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) (١).

يعكس مصطلح (شرذمة قليلون) في هذا السياق الدلالة السياسية والاجتماعية لما يشير إليه مصطلح الأقلية من وجهة نظر السلطة الحاكمة، إذ تسود بينهما علاقة صراع استخدمت فيها أدوات القهر المعنوي والمادي بقصد استئصال الأقلية وإزالتها من الوجود، وعدم التسامح معها، وقد يجنح إلى حد العمل على استئصالها (٢).

ويستخدمه التعبير القرآني للتعبير عن النقص العددي - كما ذكرنا - لكنه لا يجعل من مجرد النقص العددي مثاراً للاحتقار أو مبرراً للتقليل من الشأن، بل الغالب أن القلة تستخدم في السياق القرآني للتعبير عن المدح والتقدير - سبق وأشرنا إلى ذلك - ويذهب البعض من الباحثين إلى أن استخدام مصطلح الأقلية يأتي للتعبير عن التعدد الثقافي أو العرقي لجماعة من البشر في مواجهة جماعة أخرى تعبر عن الأكثرية (٣).

وإن كنا لا نحيد كلمة مواجهة بين الأقلية والأكثرية في المجتمع الواحد والدولة الواحدة كونها قد تثير المشاكل وتفتت رباط الوحدة والاستقرار في أي مكان تتواجد فيه.

وتقدم الموسوعة البريطانية تعريفاً للأقلية بأنها: «مجموعة متميزة ثقافياً أو إثنياً أو عرقياً تعيش ضمن مجتمع أكبر»، وأن مثل هكذا مصطلح يحمل في طياته شبكة من الآثار السياسية والاجتماعية (٤).

وتعرف الأقلية من وجهة النظر الحقوقية بأنها: «الشعب أو الجماعة الإثنية، أو اللغوية أو القومية، أو الدينية التي تختلف عن أغلبية سكان البلاد، وتعيش بشكل طبيعي في إقليم الدولة، وعلى الأغلب في منطقة جغرافية معينة منه» (٥).

وكون مصطلح الأقلية يستخدمه علماء السياسة والاجتماع فالأقلية بالضرورة خاضعة لمجموعة مهيمنة ضمن المجتمع، ووصف التبعية أو الخضوع - أكثر من كونه عددياً - هو

1 سورة الشعراء: الآية (54-55).

2 كمال السعيد حبيب، الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 2002)، ص 54-55.

3 المصدر نفسه، ص 55.

4 The New Encyclopaedia Britannica, Vol. 8, (N. P, 1994), P. 169.

نقلاً عن حيدر إبراهيم علي وميلاد حنا، أزمة الأقليات في الوطن العربي، دار الفكر، (دمشق، 2002)، ص 21.

5 مجموعة من الباحثين، الوحدة الوطنية ومشكلة الأقليات في العالم الثالث، مركز دراسات العالم الثالث، (بغداد، 1989)، ص 201.

الأصل في التعريف الأساسي للأقلية، ومثال ذلك كان السود في جنوب أفريقيا أقلية كيفية رغم الكثرة فهذا يعني بأنها أقلية بحكم هيمنة الأمة البيضاء، إذ قد تكون أكبر حجماً من المجموعة المهيمنة (1).

ولا يمثل العدد القليل لفئة ما داخل مجتمع معين عن كونه أقلية؛ فالأكثرية المضطهدة تدخل ضمن حيز الأقلية ودائرتها.

إن غياب بعض الخصائص يجعل من الصعب عدّ بعض المجموعات أقليات، ففي الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن الدين قلما يصلح بوصفه معياراً للأقلية بسبب العلمانية التي تسير عليها الدولة، ومثال ذلك مجموعات الماسونيين في الغرب رغم اشتراكهم في معتقدات تختلف عن الآخرين، ولكنهم يفتقرون لخصائص مميزة- التمايز- تجعل منهم أقلية متماسكة. نادراً ما تعد أية مجموعة اجتمعت لأسباب اقتصادية أقلية، إذ لا يكفي الوجود في مكان مشترك، إلا إذا ارتبط نشاطهم بعناصر موحدة مثل القرابة والعرق أو الثقافة، ويختلف دور مجموعات الأقليات من مجتمع إلى آخر اعتماداً على بناء النظام الاجتماعي، وعلى القوة النسبية للأقلية. كان المجتمع فيما مضى يواجه خيارين في مواجهة الوجود الذي تمثله الأقليات: القضاء عليها، أو تحملها ودمجها، وكان يمكن القضاء على الأقلية بوسائل عدة مثل القمع والاضطهاد، ففي القرن السابع عشر منع الكاثوليك الفرنسيون البروتستانت من ممارسة العبادة علناً، أو تغيير مذهبهم، أو مغادرة البلاد، فالبروتستانتية بهذه الطريقة صودرت ثقافتها وأفكارها إلى حد ما. وتعد النازية النموذج المتطرف لقمع الأقليات أمثال اليهود في محرقهم (الهولوكست) الشهيرة (2).

## الأقليات والعرقية

يحتل مفهوم العرق أو السلالة أو العنصر موقعاً هاماً في تصنيف الأقلية، وفي بعض الأحيان يرتبط العرق مع الأقلية. والعرق كلمة هلامية ومضللة في غالب الأحيان، كونها مثقلة بالانحياز القيمي وليست محايدة وثابتة. فقد تعطي المعنى حسب الحقبة التاريخية أو الإطار الثقافي أو الموقف السياسي، إذ يُعرف علم الاجتماع العنصر أو الجنس أو العرق بأنه: «اصطلاح يطلق على مجموعة سكانية تتميز بصفات بيولوجية (3) مشتركة تقررها العوامل

1 المصدر نفسه، ص 21.

2 علي وحنا، المصدر السابق، ص 22.

3 بيولوجي: علم الحياة والكائنات الحية في جميع أشكالها وظواهرها.

الوراثية . ومن الملاحظ بأنه ليس هناك ارتباط بين الصفات الوراثية البيولوجية والقدرات الذكائية ، أو المزايا الحضارية للأجناس البشرية ، إلا أن الاختلافات الظاهرية في المظهر الطبيعي والبيولوجي للأفراد أو العناصر ، قد تؤدي في ظروف معينة إلى ظهور الوعي الذي يدفع إلى الاعتقاد بمبدأ الجيد والعنصر الرديء<sup>(1)</sup> .

تضمن هذا التعريف أن العنصر أو العرق حقيقة علمية من زاوية وجود مجموعة من الناس لها خصائص فيزيقية<sup>(2)</sup> موروثه تجعلها مختلفة في شكلها الظاهري عن الآخرين ، ولكن يجب أن لا تقود هذه الحقيقة إلى القول بأنه هو سبب الاختلاف الحضاري بين الأمم - أي حقيقة الاختلاف في الأشكال طالما أنه من غير الممكن إرجاع نشأة الحضارة أو الثقافة وتطورها إلى جنس واحد يمتاز بهذه الخواص خارج أطر التاريخ ، وبغض النظر عن الظروف الاجتماعية والبيئية الأخرى<sup>(3)</sup> .

إن العرق بوصفه مصطلحاً بيولوجياً حقيقة موجودة ، ولكن بوصفه مصطلحاً ثقافياً حضارياً فلا وجود له خاصة لو تحدثنا عن التفوق والعرق النقي ، كون الخصائص البيولوجية يمكن أن تورث في أغلب الأحوال ، ولكي تكون فكرة العرق علمية ، وقع على عاتقنا التسليم بأن البشرية جمعاء تنبع من أصل واحد وأب واحد ، ولم تكن هناك اختلافات في الإنسان الأول والأصول الأولى ، والذي يسمى الإنسان العاقل ، ونتيجة للهجرات ، واختلاف البيئات الجغرافية والمناخية والمحيط الثقافي برزت الاختلافات في بعض الخصائص مثل لون البشرة ، والطول ، وشكل الرأس ، والوجه ، والشعر ، ولون العيون ، وشكل الأنف وبنية الجسم ، ويشترك البشر في التفاصيل الجسمانية الرئيسة المهمة مثل: الدماغ ، والجهاز العصبي ، وما إلى ذلك<sup>(4)</sup> .

وهذه أعضاء جسمانية تتوافر لدى جميع البشر أياً كان عرقه ، فهي تؤكد أن الأصل واحد ، أما الفروع والاختلافات فهي خارجية لا تؤثر على وحدة الإنسان وقدراته الجسمانية والفكرية ، والتي تتشكل حسب العوامل البيئية ، ويمكن أن تتغير حسب تغير البيئة .

وبحسب ما جاء في تقرير اليونسكو الذي وضعته مجموعة من العلماء من مختلف

1 علي وحنا ، المصدر السابق ، ص 28-29 .

2 فيزيقية: علم الطبيعة .

3 علي وحنا المصدر السابق ، ص 29 .

4 المصدر نفسه ، ص 30 .

الاختصاصات عام (1950) وتقرير آخر عام (1951):

1- إن أصل الإنسان واحد، وينتسب جميع الناس إلى مجموعة واحدة هي الإنسان العاقل أو الناطق، وتناسل الجميع من هذا الأصل، ثم تفرقوا وانقسموا إلى مجموعات أثرت عليها عوامل بيئية مختلفة أظهرت الاختلافات الفيزيائية الخارجية التي يمكن ملاحظتها بسهولة ويسر<sup>(1)</sup>.

2- هناك اختلاف ضعيف بين البشر في تكوينهم الأساسي، وهذا الاختلاف بسبب الوراثة أو البيئة، وأن التشابه بين الناس أشد وأقوى من الاختلاف.

3- ليس هناك ارتباط حتمي بين المجموعة العرقية من جهة، والمجموعة الوطنية أو الدينية أو اللغوية من جهة أخرى، فلا يمكن تسمية الألمان أو الأمريكيين أو الفرنسيين أو أي شعب يشكّل وطناً عرقاً، وكذلك الحال بالنسبة للمجموعات الدينية كالمسلمين أو اليهود، ولا يمكن تسمية المناطق الجغرافية المنعزلة مثل جزيرة آيسلندا عرقاً<sup>(2)</sup>.

شهد العالم وما يزال هجرات متواصلة منذ بداية التاريخ بسبب الحروب بين مجموعات بشرية مختلفة، لذلك يصعب على المرء إثبات وجود عرق نقى لم يتداخل أو يختلف مع الآخرين، ولا توجد معايير لتحديد نقاء العرق، فمفهوم مثل الدم أثبتت العلوم الطبيعية عدم فائدته لوجود فصائل معينة منه يشترك فيها جميع البشر، ومن ثم فإن فكرة الدم النقي أو الأزرق<sup>(3)</sup> مجرد خرافة واهية.

## الأقليات المسيحية في الدولة العثمانية

قُننت أوضاع الأقليات المسيحية واليهودية في الوطن العربي أي (وُضع لها إطار قانوني) عندما صدر نظام الملل والنحل مع بداية حكم الإمبراطورية العثمانية، بعد أن استولوا على القسطنطينية عام (1453) م فقرروا استمالة الأقليات الواحدة تلو الأخرى، وكانت البداية مع اختيار السلطان العثماني للبطريك كينادوس (رئيس الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية) المعروفة بعبارة (الروم الأرثوذكس) ليكون وسيطاً بين السلطان وباقي الأقليات المسيحية،

1 المصدر نفسه، ص32.

2 المصدر نفسه، ص33-34.

3 كان الناس يعتقدون أن دم النبلاء لونه أزرق وليس أحمر على خلاف جميع الناس ممن هم دونهم منزلة، وسبب اختيار الناس للزرقة لونا لدماء النبلاء هو بسبب شدة بياض بشرتهم فيبدو الدم في عروقهم أزرقاً، فاعتقد الناس بذلك.

ومن ثم منح البطريرك كينادوس لقب (ملتي باشا) أي رئيس الملة أو الطائفة ، وقد استقر نظام الملل في العصر العثماني في القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

أصدر السلطان العثماني مرسوماً يفوض فيه البطريرك سالف الذكر بتعيين الأساقفة وجميع رتب الأكليروس (رجال الدين) ، وكذلك حقه في عزلهم إذا تطلب الأمر ذلك ، والنظر في القضايا والدعاوى الخاصة بأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث . ومنح البطريرك حق الفصل في القضايا المدنية والجنائية بين أبناء الديانة المسيحية<sup>(1)</sup> .

وفي عام (1831) استطاع الأرمن الكاثوليك - بمساعدة فرنسا- أن يكونوا طائفة لها استقلاليتها ، وقد أعقبها حق آخر ، ففي عام (1857) أصبح بطريرك الأرمن الكاثوليك حاملاً للقب (ملتي باشا) ومن اختصاصاته أن يمثل مصالح بعض طوائف الكنائس المشرقية<sup>(2)</sup> .

وفي ظل الصراعات الدينية والسياسية في أوروبا ، ووفق توازن القوى السياسي الثقافي السائد قبل الثورة الفرنسية ، أصدر السلطان العثماني قوانين حول إصلاح أحوال الأقليات التي تعيش في كنف الدولة العثمانية ، فصدر القانون أو البيان الأول عام (1839) المعروف باسم خط كلخانة ، والثاني كان أكثر وضوحاً وصدر عام (1856) المعروف بخط همايون ، أو الخط الهمايوني (والذي لا زال البعض في مصر يعدونه المرجعية في حق الدولة في إصدار فرمان أو قرار جمهوري بإنشاء أية كنيسة) .

وعندما اتسعت رقعة الخلافة العثمانية ، كان من بين رعاياها بعض الأوروبيين التابعين للكنيسة الكاثوليكية ، فاعترف السلطان محمود الثاني أيضاً عام 1836 بهذه المجموعة ، وأطلقوا عليها اسم (لاتين ملتي) ، وفي هذا الإطار أنشئ ما كان يطلق عليه (الديوان اللاتيني العثماني)؛ ولذلك أطلق على رئيس هذا الديوان عبارة (قنصل اللاتين)<sup>(3)</sup> .

كانت الأقليات داخل الدولة العثمانية ، وخاصة المسيحية منها حجة للعديد من الدول الأوروبية للتدخل في شؤون الدولة الداخلية ، وما حرب القرم (1853-1856)<sup>(4)</sup> إلا دليل صارخ على ذلك ، وهذه حال جميع الدول التي تحيا في كنفها الأقليات بأديانها وأعرافها كافة .

1 المصدر نفسه ، ص 178 .

2 المصدر نفسه ، ص 178 .

3 المصدر نفسه ، ص 180 .

4 حرب القرم (1853-1856): وقعت بين الجانب الروسي من جهة والدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى وانتهت بانتصار الطرف الأخير ، للمزيد من التفاصيل ينظر: أحمد صالح عبوش وعمر رشيد زنكنة ، تجارب الوحدة في أوروبا في القرن التاسع عشر ، مطبعة ابن الأثير للطباعة والنشر ، (الموصل ، 2008) ، ص 33 .